

الحركة الرومانتيكية والمذهب التعبيري وأثرها في ترويج فكرة الأصالة الهوياتية التي ستبنى عليها أفكار تحقيق الذات



منذ بدايات عصر النهضة سيطرت فكرة وحدة العقل المشترك، وأنه عند أفراد الجنس البشري العاديين جميعًا هو المعيار الحاسم للأصالة أو ميزان القيمة، بصرف النظر عن اختلاف الزمان والمكان والعرق والميول والمواهب الفردية.

واستمرت هذه الفكرة منذ أواخر القرن السادس عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر، ثم حدث التحول واستبدلت النظرة الواحدية بفلسفة التنوع، وراج في عقود القرن التاسع عشر معاداة تعميم المقاييس، والنفور من البساطة، والاهتمام بالخصائص الفردية والقومية والعنصرية.

وقد تبلور هذا التحول في مساحة واسعة من الأفكار أطلق عليها «الروماتيكية»، وهو في أساسه مذهب فني وأدي يولي عناية فائقة بالتفرد الذاتي، وعلو الخيال، وقدسية الشعور، وتتميز الذاتية الروماتيكية بكونها تنظر إلى «الأنا» كشيء مستقل عن المجتمع والثقافة والقيم.

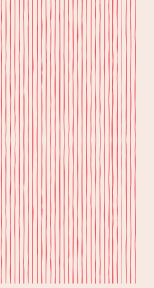


فالحكمة الأولى للرومانتيكية هي: «امض على سجيتك، أي: كن فريدًا»، وهذه الخلاصة الرومانتيكية عمّقت مشروعية النزعة الفردانية، وكان لها الأثر البالغ في إنتاج رؤية جديدة للأصالة الفردانية، التي تعني أن كل فرد مختلف وأصيل.

وهذه الأصالة تحدد كيف يجب أن نعيش، ولا تعني مجرد إثبات الفروق الفردية؛ وإنما تعني تكريس هذه الأصالة والفرادة، والتعويل عليها لـ «منح القيمة» للحياة الفردية، وأن على كل فرد أن ينهل من ذاته ولا يبحث عن الأصالة في النماذج الخارجية للأفراد والأشياء.

وفي القرن الثامن عشر ظهر موقف جديد من الطبيعة، يمكن تسميته بـ «ديانة الحساسية (cult of sensibility)» أي أن الطبيعة -كما عبر الروائي لورنس ستيرن-: «الينبوع الأبدي لشعورنا، وهي المقدس الذي يتحرك في الداخل».

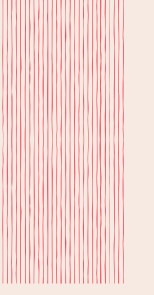
وكان لأطروحات جان جاك روسو تأثير بارز في الانتشار الشعبي لإدراك الضمير بوصفه «صوت الطبيعة» داخل الفرد، وتكمن سعادة الفرد في انسجامه مع هذا الصوت الداخلي، لأنه يمثل الذات في أعماق معانيها، فقد أصبح روسو -ببلاغته وشهرته الأدبية- مصدرًا لكثير من أطروحات اكتشاف الذات وفلسفاتها، ونزعات الاستقلال الذاتي الجذري في الثقافة المعاصرة.



وهذه التصورات الجديدة نتجت عن مزيج مركب من الظواهر والتغيرات في كافة المجالات، فقد تأثرت الرؤية الديكارتية -وما تلاها من أطروحات تمركز الذات- بالتوسع المطرد للمجتمعات التجارية، ونشوء الدولة الحديثة، وتنامي الطبقات الغنية، وتزايد الهجرة المدنية، وما تلاها من ثورة التصنيع والثورة التقنية، واتساع الحركة المكانية والزمانية، باكتشاف أنظمة الاتصال والمواصلات، وآثار ذلك كله في تدمير البنى التقليدية للعلاقات والاعتقادات، والأعراف والهويات والأديان.

الذات مصدر المعنى في الثقافة الحديثة





مهد الإرث الطويل لنزعات التمركز حول الذاتية الباطنية لحدوث
نقلة واسعة في القرن العشرين لاستكشاف الذاتية الفردية،
والتي تجلت في مناهج التحليل النفسي، وبعض الاتجاهات
النقدية والفنية، وتيار الوعي في الرواية، وفي ظهور مسارات ثورية
لنفي مركزية الذات، والتركيز على تدفق الخبرة، وتحويل الاهتمام
إلى اللغة واعتبارها كائنًا مستقلًا.



وبرز في هذا السياق ظاهرتان جديدتان في تناول الذات والخبرة الباطنية في الثقافة المعاصرة:

الظاهرة الثانية

نجدها في تناول الجديد لمفهوم الوحدة والعزلة، والأشكال الجديدة لأنماط «الإقامة في الزمن».

الظاهرة الأولى

تتجاوز النموذج الرومانتيكي الكلاسيكي في صياغة الذات، وتكرس خطابها لبيان تفكك الخبرة الذاتية نفسها وتذررها وانحلالها، إلى حد الشك في الأفكار الذاتية عن الهوية.



وهذه الظواهر الثورية الجديدة في تناول الذات تسعى إلى الانقلاب على النظرات الفلسفية القديمة والرومانتيكية التنويرية التي تعترف بالذات الموحدة والهوية المتميزة للفرد، فجاءت حداثة القرن العشرين لتشكك في وحدة الذات القبلية، وتهدف بحجة تحرير الخبرة إلى فتح الطريق أمام الذات لاستيعاب التغيرات والتبدلات التي تعرض لها داخل حركة الزمن.



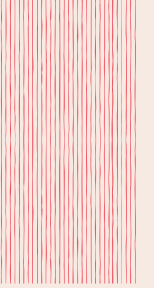


وبرغم هذه التغيرات الطارئة، إلا أن الأفكار الرئيسية للرومانتيكية والنزعة الفردية التعبيرية (التعبير الذاتي، تحقيق الذات، الرضا عن الذات، اكتشاف الأصالة) لا تزال هي المهيمنة في النموذج الثقافي الحديث المعاصر، فنظام المعرفة والوجود الحداثي تأسس عبر تكريس الاعتداد بالذات الباطنية، وبناء اليقين على أساس مستقل عن المعارف والأفكار الخارجية، وتأطير المنظومة الأخلاقية بصيغة إنسانية بحتة.



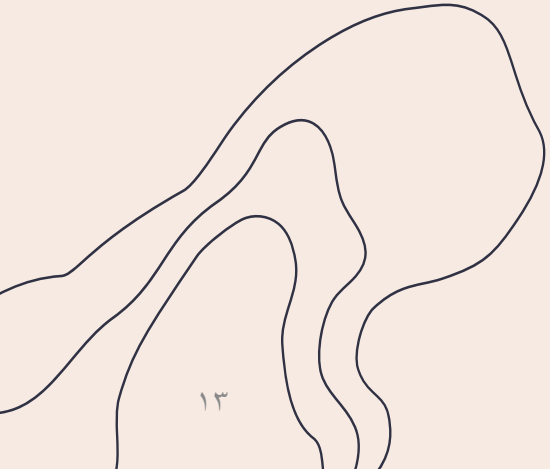
أدبيات الاعتماد على الذات





يعزو جورج زيمل تصاعد النزوع الفردي والميول الذاتية في الثقافة المدنية الحديثة إلى تضخم العقلنة وهيمنة الروح الموضوعية على حساب الروح الذاتية؛ فالفرد يختزل إلى كمية ضئيلة كحبة غبار من ضمن تنظيم هائل للأشياء والقوى التي تأخذ من الفرد كل ما هو مرتبط بالتقدم، والروحانية، والقيمة؛ فقط كي تحولها إلى وجود موضوعي خالص.

وهذا التضائل للماهية الإنسانية والتأسيس المادي للوجود الإنساني انتهى إلى فقدان الفرد لجوهره الفلسفي والنفسي، وكان الدرع الأخير لمقاومة هذا التضائل والتآكل هو الذات نفسها، وتضخيم العنصر الشخصي فيها، فتصاعد من ذلك الحين الهوس بإدارة الذات ورعايتها وتطويرها والثقة بها.



تحليل بعض المظاهر المهمة في حقل الرواية وأدب الاعترافات واليوميات ودلالات تاريخ كلا الحقلين وتطوره على تاريخ الوعي بالذات



أولاً: الاعترافات والسير الذاتية واليوميات:

يرتبط الاهتمام الكبير في القرون الثلاثة الأخيرة بالمذكرات لمؤثرات ودوافع ثقافية ودينية عدة، فقد اعتنى بعض المسيحيين الأوائل بمحاسبة الذات وتأملها، وكشف باطنها؛ ليكون متوافقًا مع المعايير الدينية، وذلك بتدوين أفعال الذات وخطرات النفس.

وحظي استكشاف الذات في التاريخ المسيحي بعناية خاصة مع ظهور حركات الإصلاح الديني، وكان جزءاً من أدبيات التهذيب، وتعاليم الانضباط الأخلاقي، ثم ما لبث هذا الإرث المسيحي الكثيف أن دخلت عليه تأثيرات التحولات في المشهد العام الثقافي، وتصاعد النقد التنويري، وظهور التيارات الإنسانية، حيث ضعف الدافع العقائدي لاستكشاف الذات، وانبثقت دوافع دينوية جديدة، وشيئاً فشيئاً بدأ الانغماس الذاتي المتصاعد في رصد الذات يصطبغ بصبغة علمانية.

ثانيًا: الرواية:

تعد الرواية الشكل الأدبي الذي يعكس التوجه الفردي الحديث، فانشغلت منذ بدايتها بالهوية الشخصية، والوعي الذاتي بالزمن وتشكلاته، وظهرت ضمن المشهد الثقافي العام الذي تتكاثر فيه التصورات الفردانية في حقول المعرفة، وفي الفكر السياسي والأخلاقي.



وقد انعكس هذا النموذج الذاتي والفرداني في الرواية الحديثة في تقديمها للتجربة الفردية بصيغ تشابه السيرة الذاتية الاعترافية، وهي بذلك تتفوق على الأشكال الأدبية الأخرى في تقريبنا من الكيان الأخلاقي الباطني للفرد.

في حين أن تركيز القصة القديمة والكلاسيكية كان يستهدف ما هو شامل وكلي، تأسست الرواية الحديثة على رؤية للعالم محورها الأفراد، والعلاقات الاجتماعية بينهم، فالانشغال الرئيس للرواية الحديثة يتمركز حول «فحص الطبيعة الإنسانية في عالم سيصبح فيه الإله غائبًا، أو غير موجود، أو مشكوك فيه».





ومن هنا أصبح هدف الرواية الحديثة الأساس البحث عن المعنى المفقود الذي كان يتوفر في الأدب والملاحم الشعرية القديمة، ويكمن دور بطل الرواية الحديثة في مواجهة الواقع الاجتماعي الخالي من المعنى، ومحاولة اختراع معنى ما، على أن هذه المحاولة تبوأ بالفشل، فرواية القرن العشرين تعبر عن أزمة الذات الحديثة ومعضلة تلاشي المعنى.

